عقدة الآداب

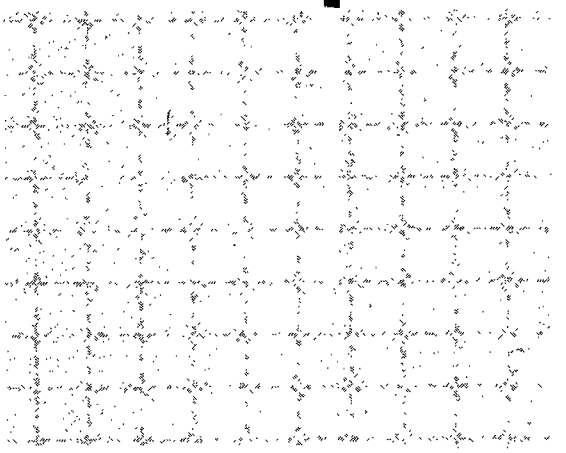

في عام ١٩٦٢ جئت الى دمشق طالبا في كلية الآداب (قسم اللغة الانكليزية) بالجامعة . كنت حتى ذلك الحين اكتب قصائد كلاسيكية في هجاء بعض رجال الدين وبعض المظاهر الاجتماعية .

في الجامعة ، ذلك العام الدراسي ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣ التقيت بعلي كنعان وكنا في صف واحد . كان اكبر مني سنا لكنه لاسباب صحية قد تأخر في دراسته والتقينا. كان علي كنعان يومها اهم اسم شعري في الجامعة وخارجها . وكان ، مع خليل خوري ، شاعري دمشق المبرزين . اما علي الجندي فلم يكن يومها يثير اهتماما كبيرا .

وكانت اهمية علي كنعان مقرونة بانه « ينشر في الصفحات الاولى من الآداب » . وكان هذا امتيازا باهرا لمجموعة من الشباب الذين يكتبون الشعر ويحلمون ان ينشروا في الآداب .

لم اكن يومها اعرف من شعراء العربية بعد احمد شوقي وحافظ ابراهيم الا نزار قباني وشعراء المهجر وبدوي الجبل . كانت بيئتي لا تقدم لي الا المصادر الكلاسيكية من التراث . واستطعت ان اكتشف ان نزار قباني يكتب شعرا على الشكل الحديث لكنه موزون : هناك تفعيلة . فما هذا الذي تكتبه يا علي كنعان ؟ قال : شعر . قلت : موزون ؟ قال : نعم . تحديته ببجاحة وحاورني بهدوئه المعهود وجلسنا في بوفيه الجامعة وبين ايدينا مجلة « الآداب » لكي تقطع قصيدته « بابا تويل والموتى». وكانت القصيدة موزونة !!

استعرت المجلة من علي كنعان وقرأتها ومنذ ذلك اليوم اصابني ما يشبه الجرب . تحك وتحك وتحس بحاجة الى المزيد من الحك . بدأنا ننتظر الآداب لقراءتها وبدأت اعود الى البسطات ومكتبات الاصدقاء لقراءة الاعداد القديمة والنقد والردود والمساجلات .. ثم الدواوين التي تنشرها دار الآداب وكتب النقد، وتعرفت على رواد حركة الشعر الحديث ووجهات النظر النقدية ومعاركهم مع اخصامهم .

كانت الآداب في ذلك الحين منهلنا الثقافي الهام. وكنا نقرأ مجلة « شعر » ايضا . غير ان عواطفنا القومية ومبادئنا السياسية كانت تجعلنا اكثر ميلا للآداب واهتماما بها .

وحتى ذلك الحين لم اكن قد كتبت اية قصيدة حديثة . وذات يوم كنت ادرس وحدي في شرفة الغرفة التي أستأجرها وكانت هناك فتاة تدرس في غرفة مجاورة، ولم اكن ارى منها الا ظلها الذي يروح ويجيء على الجانب الآخر من الشارع . كنت مستمتعا بمراقبة ظلها . وحين اطفأت الضوء للنوم بقيت وحدي دون ظل .. احسست بالوحشة والفراغ . ثم احسست بتفاهتي (اجلس هنا لارقب ظل فتاة وانا في دمشق ؟) ثم احسست بفقري وبانني لا املك شيئا من هذه المدينة .

مجموعة من الاحاسيس والمشاغر . وجلست اكتب. وجاءت قصيدة على الشكل الحديث ، وكان من المستحيل ان تأتي الا على الشكل الحديث طالما انني ممتلىء بهذه الاحاسيس الصعبة .

في الصباح راجعتها قليلا ثم طرت الى علي كنعان، قرأها بهدوء . اعجبته فيها بعض الاشياء وانتقد فيها اشياء اخرى (فسرت نقده لحظتها بانه غيرة من ابداعي) وقلت لنفسي : لماذا يتبجح هذا العلي كنعان ؟ نحن ندرس الادب الانكليزي معا . وهو ، كطالب ليس افضل مني ، وانا اطالع بنهم مرضي . ألانه ينشر في الآداب ؟ وحق ديني لا بد أن انشر في الآداب . وسأنشر هذه القصيدة ذاتها .

ولكنني بعد ان عدت الى البيت شككت بقيمة القصيدةواحتفظت بها في دفتري . وظللت وعلي كنعان صديقين حميمين مياومين . ندرس معا ونسهر معا ونتناقش ونستدين ونجوع . وتعززت علاقتنا ونسيت التحدي الذي كان بيني وبين نفسي في ان انشر في الآداب . كنا مسحوقين تحت وطأة هموم كبيرة علينا وتبدأ من ورطة تأمين النوطة او شرب القهوة في البوفيه الى التفكير بالفلاحين وبفلسطين .

في اواخر العام الدراسي كتبت قصيدة ما ازال احبها حتى الآن وكانت مناجاة لعلي كنعان تحكي معاناة شابين ريفيين فقيرين في دمشق وفي الجامعة . كانت بعنوان « غريبان » غافلت صديقي وارسلتها للآداب ،لاول مرة ، وكانت مهداة اليه .

وفوجئت في الشهر التالي انها منشورة . كانت فرحتي كبيرة . وفوجىء علي . فوجيء انني اهديتها اليه وانها منشورة في الآداب . وفوجىء زملاؤنا في الجامعة .. ولكن بعضهم همس « سهيل ادريس نشرها لانها مهداة الى علي كنعان » . كابرت وناقشت. ولكنني بيني وبين نفسي وبعد ان قال لي علي كنعان ان القصيدة تحتاج الى اعادة نظر قدرت أن هذا قد يكون صحيحا . وانتظرت العدد القادم لاقرأ النقد .

كان ناقد العدد محي الدين صبحي انهال على القصيدة بشتم مقذع ومسح بها الارض ، ولكنني رغم ذلك سررت لانه ، على الرغم من شتائمه ، قال انها قصيدةتمس شغاف القلب .

بعد فترة اردت التأكد من ان القصيدة قد نشرت لانها تستحق وليس لانها مهداة الى علي كنعان .ارسلت قصيدة بعنوان « دير ماما » ـ اسم قريتنا ـ وانتظرت عددا وثانيا وثالثا ولم تنشر .

اذن هذه هي الحقيقة !!

في العام الدراسي التالي ، اعلنت الآداب عن عدد خاص بالقضية الفلسطينية فارسلت قصيدة تعتمد على حكاية شعبية بعنوان « السيف والصدأ » . ارسلتها بعد تردد . وصدر العدد الخاص وقصيدتي ليست فيه . كانت طعنة مؤلمة لي .. ولم اعترف لاحد من اصدقائي بانني قد ارسلت قصيدة للآداب . وظللت آمل انها قد تنشر في عدد قادم طالما ان رئيس التحرير قد نوه الى ان هناك قصائد اخرى ضاق بها المجال او وصلت متأخرة وانها ستنشر في العدد القادم .

جاء العدد القادم وكانت القصيدة فيه !

بعد حين توفي السياب وحزنا عليه بحق ، وكتبت قصيدة بعنوان « النبي » ارسلتها للآداب ايضا ونشرت فورا وعلى الصفحات الاولى (قدرت ومها ان مكانة السياب عند الآداب هي التي قدمتها الى هذه الصفحات الاولى ولكنني مع ذلك سررت بنشرها سرورا لا يوصف).

وفي العام ذاته سافرت قرابة عشرين يوما الى اندونيسيا . وعدت من هناك بقصيدة . بيّضتها في الطائرة.. وحين وقفنا في استراحة قصيرة في مطار بيروت القيتها في صندوق البريد الى الآداب .

ونشرت في العدد القادم (كان عام ١٩٦٥).

وكانت هي القصيدة الاولى التي احس انها نشرتدون شفاعة ، لا شفاعة علي كنعان ، ولا شفاعة فلسطين ، ولا شفاعة السياب .

ان الثقة بالنفس التي يستشعرها شاب مثلي ـ في ذلكالحين ـ تعطيه دافعا لا يستهان به نحو السعي الجاد من اجل تطوير وسائله وادواته . الاعتراف واكتشاف منبر ملائم لك تقول صوتك من خلاله دون ان تحس بالحرج .

هذا يعنيانني ابتداء من عام ١٩٦٥ بدأت احس بانني قد تخلصت من « عقدة الآداب » وضرورة نيل اعترافها وانطلقت فرحا بوجود منبر تقدمي استطيع ان ارفع صوتي منه . وبين ١٩٦٥ و١٩٧١ نشرت معظم قصائدي في الآداب . وقد كتبت بغزارة لم يكن يجاريني خلالها الا سعدي يوسف .

ما تزال حتى الآن لتلك الايام نكهتها. وما تزال ذكرى سعينا الاول للتعرف على امكانياتنا وتثبيتها ثم تطويرها وذكرى الشره الثقافي الذي يتصف به الاكتشاف الاول لعالم جديد ولرؤيا جديدة للعالم وذكرى المناقشات الحارة في الجامعة حول الشعر .. هذه الذكريات كلها تتمحور حول الآداب وتعيش معها .

واحس الآن وانا اكتب هذه التداعيات انني اعود (١٣) سنة الى الوراء واحس « للآداب » رائحة خاصة تذكرنا « بقراميش » الخبز المحروق في التنور وبرائحتها تمتزج روائح الطفولة والقرية ..وبرائحة الآداب تمتزج الخطوات الاولى لشباب يبحثون عن صوت وعن منبر ويحملون هموما كبيرة ويناقشون قضايا الثقافة والادب والجنس والسياسة في بوفيه الجامعة وهم يضربون الطاولات التي تربعت عليها مجلة الآداب .

دمشق